

ثنائية (الاستبدال والتوزيع) بين المعطيين: اللساني والأسلوبي
من اللغة الشفافة إلى اللغة المكثفة.

***Duality (substitution and distribution) between the two data:
linguistic and stylistic***

-From transparent to intensive language-

خيرة بن علوة

جامعة الجيلالي بونعامة (خميس مليانة/ الجزائر)

k.benalloua@univ-dbk.m.dz

تاريخ الاستلام: 2024/02/01 تاريخ القبول: 2024/12/09

● الملخص:

تحاول هذه الدراسة أن توطّر جملة من التغيرات في الاستخدام اللغوي التي تستمد خصوصيتها وحضورها من الدراسات اللغوية الحديثة، من مثل اللسانيات والأسلوبيات والشعرية، في تماسها مع اللغة، باعتبارها مادة مشتركة بين هذه الحقول في سعيها للقبض على تلافيفها، والكشف عن جوهرها ومتغيراتها حسب أنماط النصوص والخطابات، دون تجاهل للمقامات والسياقات التي تصدر فيها هذه اللغة، فضلا عن طبيعة مستخدميها. فنجد اختيارات المتكلمين تختلف تبعا لمستوياتهم الفكرية، ورصيدهم المعرفي، ناهيك عن المكنة التعبيرية التي تختلف من شخص لآخر، في الاستعمال العادي، بله الاستعمال الأدبي الذي يرتفع عن الأول درجات، بحكم زعزعته للنظام المألوف، وتصرفه في محوري الانتقاء والتنسيق اللذين يحكمان اللغة في توظيفاتها المختلفة وتوصيفاتها.

كلمات مفتاحية: اللغة؛ محورا الاستبدال والتوزيع؛ الوظيفة الشعرية؛ المجاز، الشفافية؛ الكثافة.

Abstract:

This study tries to focus on such concepts that derive their specificity and presence from modern linguistic studies, such as linguistics, stylistics and poetry, in their contact with language, as a common material between these fields in their quest to capture their convolutions, and reveal their essence and variables according to the patterns of texts and discourses, without ignoring the contexts in which this language is issued, as well as the nature of its users. Therefore, the choices of speakers vary according to their intellectual levels, and their knowledge balance, not to mention the expressive ability that differs between them in both: normal use and literary use that rises from the first degrees, by virtue of its dislocation of the familiar system, and its behavior in the axes of selection and coordination that govern the language in its various uses.

Keywords:

language, substitution and distribution, poetic function, transparency, linguistic density

1. مقدمة:

تمثل اللسانيات القاعدة التي أقامت عليها كثير من العلوم ببنائها وعلى رأسها الأسلوبية، ولقد صارت بالنسبة إلى هذه الأخيرة بمثابة "مبحث لغوي يزيد من إثراء الممارسة والتنظير"¹، فنجدها تقيم نظرياتها وتطبيقاتها النصية على الأسس اللسانية المختلفة التي تدفعها خطوات إلى التطور والتميز في دراسة اللغة والإبداعات التي تتوسلها.

والدليل على ذلك، أنها "مثلت... إلى حد الآن معنا خصبا في تحديد ماهيات الأسلوب بقواعدها العامة وممارستها التجريبية."² فكان للأسلوبية أن استفادت "من المصطلحات اللسانية دوما في توضيح مفاهيمها النقدية، ذلك لأنها الفرع الأكثر حداثة وصرامة من فروع اللسانيات العامة. ومن المصطلحات التي استفادت منها: اللغة والكلام عند دي سوسير، والكفاية والأداء عند تشومسكي، في توضيح المعيار اللغوي الذي تجري عليه الانزياحات الأسلوبية، فاللغة هي النموذج، والانزياح جار في الكلام الذي هو فردي وإبداعي."³ ويعتبر الانزياح أهم المباحث الأسلوبية ارتباطا بالمفاهيم اللسانية لاسيما ثنائية الاستبدال والتوزيع، لذلك يمكننا أن نربط المحورين بهذا القول، خاصة وأن محور الاستبدال متعلق باللغة، ومحور التوزيع متعلق بالكلام.

فما هي العلاقة إذن بين: اللغة؛ الأسلوبية واللسانيات؟

وما هما المحوران اللذان تتغير على أساسهما اللغة وتتحرك وفقهما دراسات ذين المجالين (الأسلوبية واللسانيات)؟

وكيف تنتقل اللغة من درجة الشفافية إلى درجة الكثافة على مستواهما؟

وما هو أثر ذلك على المتكلمين والمتلقين؟

وجدت الأسلوبية إذن لذاتها موقعا قارًا، استطاعت من خلاله أن تؤدي دورها "كمجال جديد في العلوم الإنسانية في ظل الفراغ الذي وُجد بين حدود اللسانيات وحدود الأدب، والذي كانت البلاغة القديمة تشغله فيما سبق.

إن التقاسم الذي وقع بين اللسانيات والأدب حول هذا المجال أفرز مشكلة أخرى في أيامنا هذه، حيث يرى بعضهم أنه يجب أن يلحق علم الأسلوب إما بالأدب، وإما باللسانيات، بينما يرى البعض الآخر أنه قاسم مشترك بين هاذين العلمين المتجاورين؛ في حين يفضل آخرون أن يكون له وجود قائم بذاته."⁴

إننا لا نستطيع أن ننكر العلاقة الحاصلة بين ثلاثية: اللسانيات، الأسلوبية والأدب، إلا أنّ هناك فروقا دقيقة يفرضها كل مجال من هذه المجالات علينا فيجعلنا مضطرين إلى التمييز بينها، وإعطاء كل مجال حقه وحدوده؛ فبينما نجد أنّ الأسلوبية تسعى إلى المساس بالأدب تحليلًا وتفسيرًا مستعينة بالطرائق والوسائل اللسانية التي تنطلق من اللغة، نلقي اللسانيات تركّز على مادّة اللغة هذه في ذاتها

¹- حر العين خيرة- جدل الحداثة في نقد الشعر العربي- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- 1997م- ط1- ص 142.

²- عبد السلام المسند- الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب- الدار العربية للكتاب- ليبيا/ تونس- 1977م- ص 90.

³- يوسف أبو العدوس- الأسلوبية: الرؤية والتطبيق - دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة- 2007- ط1- ص 69.

⁴- Pierre Guiraud et Pierre Kuentz - La stylistique: lecture- Editions klingsieck- 1970- France- 4eme triage-

p.19.

«...ce mot nouveau, c'est désigner, aux frontières de la littérature et de la linguistique un espace vide, reconnaître l'existence d'un domaine de recherche que l'ancienne rhétorique avait - partiellement- occupé, mais que laisse vacant son effondrement.

Le partage de ce domaine fait encore problème aujourd'hui. Pour certains, il doit être annexé entièrement soit à la littérature, soit à la linguistique. Pour d'autres, il est à partager entre les deux sciences voisines. Pour d'autres enfin, il faut lui reconnaître une existence autonome, ou même une véritable hégémonie.»

متخذة منها الوسيلة والغاية معاً؛ زيادة على ذلك، فإنه "من الناحية النظرية تنطلق اللسانيات من الخاص في البحث عن الخصائص الكامنة في اللغة ثم الوصول إلى العام، في حين أن الأسلوبية تنطلق من العام للوصول إلى الخاص استعانة بالطرائق اللسانية."⁵ الأمر الذي يجعلنا نرى الأدب الموضوع الأول والمباشر للأسلوبية، في حين تمثل مادته _أي اللغة_ موضوع اللسانيات بالدرجة الأولى.

وبما أن علم الأسلوب لا بد أن يمرّ بالمحطات اللغوية لإبراز خصائص النصّ الأدبيّ وجمالياته، فإنه يمكن اعتباره "فرعاً من علم اللغة يختص بتناول المتغيرات في نصوص بأكملها."⁶ وهي القضية التي عكف على إثرائها وتوسيعها كثير من الباحثين، حيث "يعود الفضل إلى جاكوبسون والشكلايين الروس معه في وضع الأسلوبية عند نقطة التقاء اللسانيات بالنصوص الأدبية، أي في مركز تقاطع مجموعة من المفاهيم والمناهج المتطورة (التي هي اللسانيات البنيوية) ومجموعة من الإنتاجات محددة من حيث الشكل والانتماء والأثر على المتلقي (وهي الإبداعات الفنية، وخصوصاً الأدبية منها)."⁷

وبناء على ذلك، نستطيع أن نقول إنّ الأسلوبية أخرجت المقولات اللسانية من بوتقة النظام اللغويّ، وحاولت أن تطبقها على الأداء الفعليّ لهذا النظام والذي يتجلى في الإبداعات الأدبية خصوصاً؛ "ولم تتخذ الدراسة الأسلوبية مدارها المستقل عن الدراسات الأخرى إلا بعد ظهور مدرسة الشكلايين الروس ولاسيما رومان ياكبسون."⁸

وبالاعتماد على اللغة ونظامها في النظر إلى النصوص الأدبية "تصبح (الأسلوبيات) دراسة مقارنة لأنماط التفضيلات التي يظهرها الكاتب في اختصاره للغة، ضمن المصادر اللغوية التي في متناوله."⁹ ذلك أنّها لا تهتمّ باللغة في نظامها المعروف لدى الجميع، ولكنها تختصّ بالاستعمال الذي يجري على هذا النظام، والذي يختلف من مبدع إلى آخر.

إنّ هذا "الاستعمال الخاص للنظام اللغويّ" هو ما أُصطلح عليه بـ"الأسلوب" _مركز الدراسات الأسلوبية_، و"لا تستطيع اللسانيات الحديثة أن تفوت على نفسها فرصة طرح الأسلوب، ولهذا استخدمت مصطلح البنية لكي تظهر أن القيمة الأسلوبية للإشارة تتعلق بمكانها ضمن النظام. بينما تتسبب كل إشارة من الإشارات إلى بنيتين: الأولى بنية القانون، وهي تحدد مكان الإشارة ضمن الفئة (استبدالية). الثانية، وهي بنية الرسالة. وتحتل الإشارة فيها موقعا (تركيبيا) محددًا."¹⁰

⁵ ينظر: المرجع السابق- ص 39

«Il s'agirait, théoriquement, de refaire le même chemin en sens inverse : au lieu de partir du particulier à la recherche du principe réducteur qui puisse conduire au général, au lieu de redescendre des ramifications multiples vers la racine unique, on partirait des éléments communs comme d'une base neutre pour remonter de proche en proche, de différence en différence, jusqu'aux ramifications extrêmes et individuelles de l'arbre typologique littéraire.»

⁶ محمد عبد الله جبر- الأسلوب والنحو: دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظواهر النحوية- دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الإسكندرية- ط1- 1988م- ص 19.

⁷ جورج مولينييه- الأسلوبية- ترجمه وقدم له: بسام بركة- المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع مجد- ط2- 2006م- ص 13، 14.

⁸ إبراهيم محمود خليل- النقد الأدبي الحديث: من المحاكاة إلى التفكيك- دار المسيرة- الأردن- د، ت- ص 151.

⁹ عدنان بن ذريل- النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (دراسة)- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- 2000م- ص 40.

¹⁰ بيير جبرو- الأسلوب والأسلوبية- ترجمة: منذر عياشي- مركز الإنماء القومي- بيروت- د، ت- ص 74.

فلقد حاولت اللسانيات أن تشير إلى هذا الأمر في ضوء العلاقات الاستبدالية¹¹ والتوزيعية¹²، ولكن طبيعة دراستها تجعلها لا تتعدى في تطبيقاتها الجملة الواحدة، لهذا كان من صالح الأسلوبية أن تقوم بهذا العمل، وتدرس المحورين فيما يفوق الجملة _ أي النص _، فتمكّن من الإحاطة بهذا المسمى "أسلوباً".

ثم إنَّ "اللغة الشعرية" التي تبني على الاستعمال الخاص للنظام اللغوي كانت الدافع والمسوّج لدراسة المحورين ضمن الدراسات الأسلوبية، حيث "بقيت اللغة الشعرية لوقت طويل مجالا متجاهلا من قبل اللسانيات".¹³ والحال أن هذه الأخيرة تعني _ كما ذكرنا _ بالنظام وليس بالخروج عنه.

يقوم الخروج عن النظام اللغوي على التوتّر الحاصل للمحورين ضمن الأداء الكلامي، "وإذا كانت الدراسات اللغوية تركز على اللغة فإن علم الأسلوب يركز على طريقة استخدامها وأدائها، إذ إن المتكلم أو الكاتب يستخدم اللغة استخداما يقوم على الانتقاء والاختيار ويركب جملة ويؤلف نصه بالطريقة التي يراها مناسبة".¹⁴ و بما "أن أي خطاب يجري في سلسلة كلامية على خط سانتغمي أو تركيبي، وهذا لا يختلف فيه أحد"¹⁵، فإن المحورين يصبحان من المباحث الأسلوبية التي يحقّ لعلم الأسلوب طرقها ما دام قوام أيّ خطاب، ومادام الخطاب _ كما النص _ موضوع هذا العلم.

لقد "اعتاد اللغويون بعد سوسور على التقابل بين محور التراكيب (المحور الأفقي للعلامات القائمة بين الوحدات اللغوية في مدرج الكلام) ومحور الاستبدال (المحور العمودي للعلاقات الافتراضية القائمة بين الوحدات التي يتحمل التعاقب فيما بينها)".¹⁶ ولقد أصبح هذا التقابل شيئا فشيئا إسقاطا وتكافؤا للمحورين في اللغة الأدبية، وفي الدراسات الأسلوبية. كما أصبح الاختيار عنصرا مميّزا للأسلوب - موضوع الأسلوبية _ "باعتبار أن الأسلوب يقوم على اختيارات الأديب لألفاظ وتراكيب يؤثرها على غيرها".¹⁷

11 - تمثل هذه العلاقات "مجموعة الألفاظ التي يمكن للمتكلّم أن يأتي بأحد منها في كلّ نقطة من نقاط سلسلة الكلام ومجموعة تلك الألفاظ القائمة في الرصيد المعجمي للمتكلّم والتي لها طوعية الاستبدال فيما بينها تقوم بينها علاقات من قابلية الاستعاضة تسمّى العلاقات الاستبدالية (Rapports paradigmatiques) ولذلك أطلق عليها محور الاختيار (L'axe de selection)". عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب - الدار العربية للكتاب - ليبيا/ تونس - 1977م - ص 134، 135.

12 - التوزيع: "هو المحور الذي ينتهي النسق التركيبي الأكثر ملاءمة للموقف وسوف يجد أمامه كثيرا من خيارات التنسيق بين الوحدات الصغرى، الحروف والأفعال والأسماء التي تم اختيارها في المرحلة الأولى". أحمد درويش - دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - د، ت - ص 47. ويسمى أيضا محور النظم، التركيب، والمحور الأفقي.

13 - Pierre Guiraud et Pierre Kuentz- La stylistiqu.- P. 58.

"La langue poétique est restée longtemps un domaine négligé de la linguistique."

14 - موسى سامح ربابعة - الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها - دار الكندي للنشر والتوزيع - الأردن - ط 1 - 2003م - ص 09.

15 - عبد الجليل مرزاق - الظاهر المختفي: طروحات جدلية في الإبداع والتلقي - ديوان المطبوعات الجامعية - بن عكنون، الجزائر - 2005م - ص 10.

16 - بوطارن محمد الهادي وآخرون - المصطلحات اللسانية والبلاغية والأسلوبية والشعرية انطلاقا من التراث العربي والدراسات الحديثة - دار الكتاب الحديث - 2008م - ص 100.

17 - محمد عبد الله جبر - الأسلوب والنحو: دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظواهر النحوية - دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع - الإسكندرية - ط 1 - 1988م - ص 18.

2. المحوران والوظيفة الشعرية:

يصبح محور الاختيار في الأسلوبية مبدأً أسلوبياً أكثر منه لسانياً، ذلك لأنه يغدو سمة في الأسلوب مميزة ينفرد من خلالها مبدع عن آخر، "ومن هنا فإن كل مستعملي اللغة-على اختلاف أغراضهم- مضطرين [مضطرون] إلى اعتماد محور الاختيار لبناء متتالية لسانية بمعونة محور التأليف، بيد أنهم لا يتساوون إذا ما نظرنا إلى الاختيار بوصفه مبدأً أسلوبياً أي بوصفه اختياراً متميزاً من اختيارات مستعملي اللغة الاعتيادية، إن الاختيار في جوهره واحد، بيد أنه مختلف من ناحية طبيعته الظاهرة، وكيفية تحققه، الأمر الذي يضيف عليه ميزة معينة تجعله لصيقاً باللغة المميزة."¹⁸

بناء على القول السابق فإن "عملية الاختيار تتصل اتصالاً وثيقاً بالذات المبدعة، إذ إن عملية الاختيار هي عملية فردية، أي أن ما يختاره زيد ربما لا يختاره عمرو، فقد يرقّ شعر أحد الشعراء ويصلب شعر الآخر، ويسهل لفظ أحدهم ويتوَعَّر منطق غيره، وذلك يعود إلى اختلاف الطبائع... فهذا التفاوت في عملية الاختيار هو إشارة إلى تفاوت الأسلوب."¹⁹

فلئن كان الحديث في القول السابق مركّزاً على درجتي الاختيار بين اللغة العادية واللغة المميزة مع الإشارة إلى الاختلاف الحاصل بين المتكلمين في هذا الاختيار حينما يتعلّق الأمر باللغة المميزة، فإنّ هذا القول يفصّل في النقطة الثانية (الاختلاف الحاصل بين المتكلمين في هذا الاختيار حينما يتعلّق الأمر باللغة المميزة)، ويرشّح الاختيار لأن يكون الحكم في وصف أسلوب كلّ مبدع، مقدّماً شرحاً لذلك انطلاقاً من جنس الشعر رقة وصلابة، سهولة ووعورة.

إنّ الاختيار ليس الركن الوحيد الذي يستند إليه الأسلوب في بنائه، فللمحور الثاني _أي التركيب_ دور في اكتماله واستوائه على سوقه؛ لذلك نجد الأسلوب "يتحدد بأنه توافق بين العمليتين، أي تطابق لجدول الاختيار على جدول التوزيع، مما يفرز انسجاماً بين العلاقات الاستبدالية التي هي علاقات غيبية يتحدد الحاضر منها بالغائب، والعلاقات الركنية وهي علاقات حضورية تمثل تواصل سلسلة الخطاب حسب أنماط بعيدة عن العفوية والاعتباط."²⁰

تفيد عبارة (بعيدة عن العفوية والاعتباط) "أن الاختيار الأسلوبي لا يمكن أن يكون اختياراً كيفياً أو اعتباطياً، إنما اختياراً من دائرة محدّدة من إمكانات التعبير اللغوية التي تناسب صياغة الفكرة المحدّدة؛ وهذا ما يجعل الاختيار الأسلوبي يأتي في علاقة ترادفية نسبياً."²¹ لأنّ المبدع لا تمهّ صفة التضاد وما يلحقها من صفات خاصّة بالمحور الاستبدالي، بقدر ما تمهّ صفة الترادف حين ينتقي من بين مجموعة متشابهات ما يصيب به كبد الإبداع والجمال.

يشير ما سبق ذكره إلى قضية كون الاختيار _ومثله التركيب_ عملية مقصودة ومحسوبة في اللغة المميزة، فالمبدع عندما ينسج نصّه يتوخّى في اختياره وتركيبه ما يجعل من نصّه محلّ استقطاب بواسطة التطرّق لما لا يستطيعه أو يستصعبه متكلم عاديّ.

¹⁸- حسن ناظم- البنى الأسلوبية: دراسة في "أنشودة المطر" للسياوب- المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء، المغرب- د، ت- ص 54.

¹⁹- يوسف أبو العدوس- الأسلوبية: الرؤية والتطبيق- ص 162.

²⁰- ج: 1، ص 220 من: R. JAKOBSON : Essais de linguistique générale عن: عبد السلام المسدي- الأسلوبية والأسلوب- ص 92.

²¹- فيلي ساندريس- نحو نظرية أسلوبية لسانية- تر: خالد محمود جمعة- دار الفكر بدمشق للتوزيع- ط1- 2003م- ص 133.

إن ما تقدّم من أمر الأسلوب في قيامه على المحورين معا، يشير إلى التلاحم الحاصل بينهما وعدم قيام أحدهما دون الآخر، "لأن عملية الاختيار لا تعني فقط اختيار الكلمات أو المفردات من المعجم بقدر ما تتصل أيضا بعملية التركيب وتشكيل النسق والسياق".²²

3. المحوران الوظيفية الشعرية:

لقد كان ل(جاكوبسون) وجماعته الفضل في تسليط الدراسة المعمّقة على هذه الواقعة الأسلوبية، وإضافة ما يثري أبحاث سابقهم دون المساس بجوهرها، وقد تجلّى هذا الأمر بوضوح في نظرية التواصل وما يرتبط بها من وظائف كلامية، حيث "إن كلا من (باختين) و (شارل بالي) نظر إلى الكلام من خلال الوظائف التقليدية: الوظيفة الانفعالية والوظيفة الإفهامية، والوظيفة المرجعية، وإن لم يتكلما عن هذه الوظائف مباشرة. وقد رأى (جاكوبسون) أن كل وظيفة من هذه الوظائف الثلاث تتناسب إما مع الشخص الأول (المُرسل)، أو الثاني (المُرسل إليه)، أو الثالث وهو (الشخص) أو (الشيء) الذي نتحدث عنه. فعمد إلى توسيع هذه الوظائف فجعلها ست وظائف، أي أضاف إليها ثلاث وظائف أخرى: الوظيفة الشعرية (**La fonction Poétique**)، والوظيفة الانتباهية (**Phatique**)، والوظيفة الانعكاسية لدراسة اللغة (**Métalinguistique**)."²³

وتعتبر الوظيفة الشعرية الدرس الأهم والمهيمن على الأسلوبيات عامة والشعريات خاصّة، ذلك أنها تعبّر عن ارتباط المحورين باللغة كاملة وليس فقط باللسانيات مما يقرّهما أكثر من الأسلوبية؛ ومن ثمّ "فإن البنيتين المصاغتين [المصوغتين] الاستبدالية والنظمية، لا تقدّمان، في لسانيات جاكوبسون، باعتبارهما فقط، ميزة للتحليل اللساني ولكن باعتبارهما، أيضا، خاصية ملازمة للغة ذاتها".²⁴ تمثّل الشعريات بابا متفرّعا من الأسلوبيات، وتختصّ بدراسة الوظيفة الشعرية على بصيرة من القاعدة اللسانية دائما، فهي "تهتم بقضايا البنية اللسانية، تماما مثل ما يهتم الرسم بالبنيات الرسمية. وبما أن اللسانيات هي العلم الشامل للبنيات اللسانية، فإنه يمكن اعتبار الشعرية جزءا لا يتجزأ من اللسانيات".²⁵ وهذا يفيد في ربط مباحث الشعريات باللسانيات، مما يسوغ التدليل على تضمن الوظيفة الشعرية للمحورين ذوي الأصل اللساني.

إذا، فإنّ الخاصية اللسانية تبقى مصاحبة للمحورين وإن بصورة خفيفة، وبطريقة مغايرة نوعا ما _ عندما يتعلّق الأمر بالعمل الإبداعي، فلو أننا نظرنا إلى المحور الاستبدالي لوجدنا أنّ "كل جملة، كل تعبير ما هو إلا اختيار من بين اختيارات ممكنة، وهو يحمل جميع الخيارات الأخرى غير المذكورة من طريق التضمن لا التصريح _ وهنا يكمن الأمر الأهم".²⁶

يكون الاختيار _ على حسب ما تقدّم _ في العمل الإبداعيّ منسحبا على الكلمة وما هو أكبر منها (جملة، تعبير)، لأنه في مُكنة المحلّل أن يأخذ منه جملة معيّنة مثلا ويأتي بمقابلها الذي كان يمكن أن يكون محلّها؛ ويظهر ذلك جليّا في الاختيارات التي تتعلّق بالصور

²²- موسى سامح رابعة- الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها- ص 28.

²³- منذر عياشي- مقالات في الأسلوبية: دراسة- منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق- ط1- 1990م- ص 53، 54.

²⁴- عثمان المبلود- الشعرية التوليدية: مداخل نظرية- شركة النشر والتوزيع المدارس- الدار البيضاء- ط1- 2000م- ص 19.

²⁵- رومان ياكوبسون- قضايا الشعرية- تر: محمد الولي ومبارك حنون- دار توبقال للنشر- المغرب- ط1- 1988م- ص 24.

²⁶ - Pierre Guiraud et Pierre Kuentz- La stylistique- p.123.

«... toute phrase, toute expression n'est que l'un des choix (scelta) POSSIBLES, et elle, porte on elle _et c'est là l'important_ tous les autres choix non EXPRIMES, mais IMPLICITES. »

البيانبة، كالتعبير عن الحسرة بالصورة الآتية في قوله _تعالى_: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا"²⁷، وقد كان يمكن أن يحلّ تعبیر: (وأصبح متحسراً...) محلّ: "فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّهُ".

ومن الدارسين من يحاول التدقيق أكثر في المصطلحات حينما يتعلّق الأمر باللغة وبالأدب، فيصطلح على المحورين في الأدب بـ"علاقات الحضور والغياب" وفي اللغة بـ"العلاقات السياقية والعلاقات الخلاقية أو الاستبدالية"، فلا شكّ أنّه من السهل أن ندرك أنّ علاقات الحضور في الأدب تقابل العلاقات السياقية في علم اللغة، كما أن علاقات الغياب تقابل العلاقات الخلاقية أو الاستبدالية. بيد أن الأدب ليس نظاماً رمزياً أولياً مثل فنّ الرسم مثلاً، أو مثل اللغة إلى حدّ ما، ولكن يستخدم مادّة له مأخوذة من نظام آخر سابق عليه وهو اللغة، مما يجعل علاقاته أشدّ تركيباً وتعقيداً. على أن هذا الفرق بين النظم اللغوية والأدبية لا يلاحظ بنفس الدرجة في جميع الأجناس الأدبية، فهو أدقّ وأدنى في حالة التعبير الغنائيّ حيث تنتظم الجمل في النصّ بشكل مباشر، بينما يأخذ أكبر أشكاله وأحدها في النصوص الروائية، حيث تمثّل الأحداث والشخصيات من جانبها تصوراً مستقلاً إلى حدّ ما عن الجمل التي تطلّعنا عليها.²⁸

يشير القول إلى قضية هامة في تشكيلة العلاقات في كلّ جنس أدبيّ؛ فبينما نطلع إليها في التعبير الغنائيّ بصورة واضحة ومبسّطة نتميّز من خلالها الاختيارات والتنسيق، نقف في النصوص الروائية على صورة معقّدة ومتداخلة من التراكيب، ذلك لأنّها لا تؤدّي لوحدها الدلالة المقصودة بل تراحمها صور الأحداث والشخصيات التي تُعدّ عاملاً رئيسياً في اكتمال صورة التراكيب والاختيارات المبسّطة على مستوى النصّ الروائيّ.

تقودنا هذه المسألة إلى رصد الفروق التي تنتج عن طبيعة الجنس الأدبيّ وما تتطلبه من تحليل خاصّ؛ "وأهمّ الفروق التي تترتّب على اختلاف الأبنية الشعرية عن القصصية هو أن منهج التحليل في كلّ منهما يتميّز باتجاه مضاف للآخر، فالتحليل البنائيّ للشعر يسير في اتجاه رأسيّ من السطح إلى العمق، أمّا تحليل القصص والأساطير فيسير في اتجاه أفقيّ عرضيّ، ويمكن اعتبار كلّ عمل شعريّ بصفة منعزلة عن غيره والعتور فيه نفسه على تنوعاته التي تنتظم طبقاً لهذا المحور الرأسيّ؛ بينما نجد أنّه من الضروريّ تفسير الأبنية القصصية والأسطورية على المستوى الدلاليّ العريض فحسب."²⁹

معنى ذلك أنّ جنس الشعر يركّز في تحليله على جملة الاختيارات التي يمثّل محور الاستبدال الرأسيّ مصدرها، لأنه يولي اهتماماً أكثر وغاية بالغة بجمالية التعبير، وربما كان ذلك هو الدافع لتركيز التحليل فيه على محور الاختيارات؛ وعلى العكس من ذلك، يركّز تحليل القصص على محور التركيب لأنّ اهتمامها ينصبّ أكثر على دلالاتها والمقاصد التي ينبغي للمتلقّي التقاطها منها.

ولكنّ قولنا بتركيز الاهتمام على محور من المحورين في التحليل لا يعني تهميش المحور الثاني، إذ لا يمكننا أن نفصل بينهما لأنهما كلّ متكامل في العمل الأدبيّ؛ وعليه فإنّ "الفصل القاطع بين الانحرافات السياقية والاستبدالية لا يمكن الإصرار عليه في التحليل

²⁷- الكهف - 42.

²⁸- صلاح فضل - علم الأسوب والنظرية البنائية - دار الكتاب المصري، القاهرة - دار الكتاب اللبناني - بيروت - 2007م - ط 1 - ج 2 - ص 536.

²⁹- المرجع نفسه - ج 1 - ص 574، 575.

الأسلوبي؛ فالانحراف الاستبدالي في وضع المفرد مكان الجمع مثلاً لا بد أن يترتب عليه انحراف تركيبّي يتّصل بضرورة التوافق في العدد بين أطراف الجملة.³⁰

إنّ التشابك الواقع على مستوى العمل الأدبيّ، ناجم — كما سبقت الإشارة إليه — من كونه نظاماً على نظام، نظاماً (الأدب) له تركيبته وخصائصه يقوم على نظام يشكّل مادته (اللغة) له — هو الآخر — تركيبته وخصائصه؛ ولكن رغم ذلك، يبقى المحوران الجسر الرابط بين اللغة والنص الأدبيّ، ذلك أن "وجود النصّ يفترض وجود اللغة التي أنتج بها هذا النصّ، وعلى ذلك فإنه ينبغي أن يكون واضحاً لدينا أن إنتاج النصّ يقوم على اختيار بعض العناصر اللغويّة كأجزاء أو فقرات من سلسلة تمثّل البنية الخطيّة للنصّ. وتعتبر البدائل اللغويّة المحتملة لهذا النصّ المحوّر الآخر الذي تتصل به، فإنّ إنتاج النصّ يتمثّل كما يقول "جاكوبسون" في عرض عناصر من محور التبادل اللغويّ على محور التجاور السياقيّ في النصّ.³¹

4. ثنائية (الانتقاء والتنسيق) بديلاً عن (الاستبدال والتوزيع) في الدراسات الأسلوبية:

تصير تسمية "الانتقاء" و "التنسيق" للمحورين حين يصطبغان بالدراسة الأسلوبيّة أنسب لشرح طبيعة العمل الأدبيّ والأداء الكلاميّ — بصفة عامّة —، لذلك "يدرس جاكوبسون اللغة بشكلها المحكيّ فيركّز فيها على تلك المظاهر التواصلية، ويسترعي انتباهه اعتماد الإنسان في كلامه على ظاهريّ الانتقاء **Sélection** والتنسيق **Combinaison** فيعرّفهما على أنّهما عمليتان رئيستان في سيرورة الكلام. فالتكلّم عنده يتطلّب عمليتين أساسيتين أولهما الانتقاء.

يختار المتكلّم بعض العناصر المجردة الموجودة في مخزونه اللغويّ، ثمّ يأتي دور العنصر الثاني المتمم وهو التنسيق بين هذه الوحدات المجردة والعناصر المختارة لتكوّن وحدات لسانية معقّدة.³²

فمصطلح "الاستبدال" — كما يبدو — لا يوحي بالقصدية والجمالية في المفاضلة بين المفردات المستبدلة، لكن "الانتقاء" — على خلافه — يؤدّي تلك المهمة؛ وكذلك بالنسبة لـ "التركيب"، فهو يشعرنا بالعفوية في ضمّ المفردات المختارة على نحو خال من التفرد و الإبداع، أما "التنسيق" فيحملنا على تصوّر المشقّة والجهد البالغ الذي يبذله المبدع في سبيل الخروج بتركيب للمختارات في صورة فريدة من نوعها.

هذا، و"يرتبط الانتقاء (وبالضرورة الاستبدال) بالكيانات المترابطة في النظام اللغويّ وليس بالمرسلة المعطاة، في حين أنه في حال التنسيق تكون الكيانات مرتبطة بالاثنتين معاً أو بالمرسلة الفعلية فقط.³³ يحيلنا ذا القول على واردة أخرى، وهي أن محور الاستبدال حينما يكون متعلّقاً بالمعجم يمكن أن يفصل عن محور التركيب في الدراسة، أما إذا لامس قواعد الصرف والنحو مثلاً فإنه يكون وطيد العلاقة به.

³⁰- المرجع السابق - ج 1 - ص 212.

³¹- المرجع نفسه - ج 2 - ص 650.

³²- فاطمة الطبال - النظرية الأسلبيّة عند رومان جاكوبسون: دراسة ونصوص - المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان - 1993م - ط 1 - ص 38.

³³- المرجع نفسه - ص 157، 158.

إنّ الأسلوبية حقل دراسي واسع ومتشعب تشعب زوايا الخطاب ووقائعه التي "تعتمد... على الموضوع، الكاتب، ظروف التواصل؛ على أنّ فيه وقائع أخرى لا تعتمد إلّا على الرسالة في حدّ ذاتها، وعلى ترتيبها العميق. وهذا ما يسمّيه جاكوبسون الوظيفة الشعرية.³⁴ وبما أنّ المحورين يمثلان خاصية من خصائص الرسالة في حدّ ذاتها، وأنّ الوظيفة الشعرية التي تتضمنهما تُعنى بها، فضلنا أن نعكف على هذه الوظيفة شرحا وبيانا ومن ثمّ نستجلي تمظهرات المحورين على مستواها والدور الذي يؤديانه من خلالها.

وكأني مفهوم من المفاهيم النقدية، حريّ بنا أن نبدأ الحديث عن الوظيفة الشعرية من المصطلح، حيث نجدتها تحلّ محلّ الأسلوبية مصطلحيّا عند (جاكوبسون)، إذ "من الملاحظ في هذا الخصوص، أن جاكوبسون لم يستخدم قطّ كلمة الأسلوبية. ولّما استخدم كلمة الأسلوب، لأنّه يبذلها بأخرى هي الوظيفة الشعرية. أنه يدرس هذا الشعر من جهة أخرى ضمن منظور وصفيّ بحث، يضع بالنسبة لكلّ نصّ الطبيعة البديهية لبناء الداخلية: علاقات بين الإشارات على مختلف المستويات الصوتية، والنحوية، واللفظية، والوزنية، إلى آخره.³⁵ و إذا كانت هذه الوظيفة عند (جاكوبسون) تقوم مقام الأسلوبية مصطلحيّا، فإن (ريفاتير) يقترح أن يصطلح عليها بـ"الوظيفة الأسلوبية" نظرا لما تهيئه تسمية "الوظيفة الشعرية" من اتصال بجنس إبداعيّ دون الآخر وهو الشعر. بخلاف تسمية "الأسلوبية" التي تعتبر جامعة شاملة؛ فهو يرى أن الوظيفة الشعرية تتصل بالجانب اللغويّ الذي يصفه علم الأسلوب، وبالرغم من أنّ كلمة "شعرية" أكثر تحديدا من "جمالية" التي استخدمها "جاكوبسون" في المراحل الأولى مع علماء حلقة "براغ"؛ لأنّ الوقائع الشعرية توجد في قلب البنية اللغوية، بينما تُعدّ الجمالية شيئا فيما وراء اللغة، بالرغم من ذلك فإنّها لا تزال تحصر مجال الوظيفة في نطاق الفنّ اللغويّ.

وإذا كان "جاكوبسون" يقول بوضوح "إنّ علم اللغة عندما يعالج الوظيفة الشعرية فليس بوسعه أن يقتصر على مجال الشعر"؛ لأنّ الوظيفة الشعرية عنصر مكوّن في جميع مجالات النشاط اللغويّ، وإن اختلفت في كثافتها وتعقيدها من شكل لآخر، فإننا نفترض عند الحديث عن الفنّ اللغويّ أن موضوع التحليل سيتمّ اختياره طبقا لأحكام جمالية، مما يتعارض مع تصوّر فكرة الوظيفة. من هنا يقترح "ريفاتير" إطلاق تسمية الوظيفة الأسلوبية على هذه الوظيفة الشعرية لتشكّل جميع الأشكال البسيطة والمعقدة معا.³⁶

وأغلب الظنّ أن تسمية "الوظيفة الشعرية" إنّما اتخذت النسبة إليه من باب "الحكم للغالب"، فمن الملاحظ "أنّ الوظيفة الشعرية ليست قاصرة على الشعر ولكنها تلعب فيه الدور الغالب المميّز وإن كانت توجد في بعض الاستعمالات المنظومة الأخرى لكنها تتبع حينئذ وظيفة أخرى أساسية هي الإعلام في حالة المنظومات العلمية.³⁷

وكما اختلف (ريفاتير) مع (جاكوبسون) في الاصطلاح على الوظيفة الشعرية، اختلفا أيضا في تحليل الرسالة التي تتعلق بها، فالرسالة عند (جاكوبسون) مكتفية بذاتها، في حين أنّها عند (ريفاتير) ناقصة ما لم يكملها عنصر المتلقي؛ و بتعبير آخر، "يقدم هذا التصوّر رؤية تتجاوز ما طرحه جاكوبسون في أنّ الرسالة قائمة بذاتها، ولا يظهر من ذلك أنّ هذه الرسالة تحقق تواصلًا مع المخاطب، أما

³⁴- Pierre Guiraud et Pierre Kuentz - La stylistique- P.155.

«Les effets du discours dépendent du sujet, de l'auteur, des conditions de la communication ; mais il en est d'autres qui ne dépendent que du message lui-même, de son organisation intime. C'est ce que Jakobson appelle la fonction poétique.»

³⁵- بيير جيرو- الأسلوب والأسلوبية- تر: منذر عياشي- ص 79.

³⁶- صلاح فضل- علم الأسلوب والنظرية البنائية- ج1- ص 240، 241.

³⁷- المرجع نفسه- ج2- ص 592.

ريفاتير فإنه يرى أن الرسالة لا يمكن أن توجد بذاتها، وإنما هناك علاقة يجب أن تنشأ بين الرسالة والمخاطب، فالعلاقة التي تقوم بينهما عنصر مهم من عناصر الأسس التي أقام عليها ريفاتير أسلوبيته البنيوية.³⁸

لقد انتصر (جاكوبسون) للوظيفة الشعرية نظراً لما تحويه من تلاعب باللغة، وإن كان البعض يرى هذا الفعل ذا أثر سلبي على الآثار الإبداعية، ويقول عنه إنه قد "بالغ... في تقويم قصائد مكنته من تحليل أصواتها أو نحوها، أو أعجبته لأنها تجري تجارب لغوية... وقد جعله ميله الخاص للشعر الذي يتلاعب باللغة يُعلي من شأن هذا النوع من الشعر على حساب التراث الشعري القديم".³⁹

5 . جماليات اللغة في ظل الوظيفة الشعرية:

أصبحت الوظيفة الشعرية مهيمنة في دراسات (جاكوبسون) "لكونها أبرز وظائف الفن اللغوي الأدبي، وفي ضوء هذه الوظائف التي قدمها ياكوبسون فإن جماليات اللغة تنشأ من خلال الاختيار والتركيب اللذين يعتمدان على مبدأ التعادل".⁴⁰ ويبدو أنه استأنس لها انطلاقاً من ارتباطها الوثيق بالعمل الأدبي الذي ركزت الأسلوبية البنيوية على جعله الوسيلة والغاية معا في التحليل، أما الوظائف الأخرى فتترتب بطورفه الحبيطة ووقائعه الخارجة عن نطاقه.

وإذا كان المحوران في الوظيفة الشعرية — حسب تفكير (جاكوبسون) — يؤديان دوراً جمالياً إبداعياً، فإنهما — وعلى خلاف ذلك — يمثلان طريقاً لهدم اللغة بطريقة سلبية من خلال مرض الحبسة؛ "ولقد، بين، خاصة، أن هدم اللغة يتم وفق طريقين، وذلك تبعاً لإصابة المريض. ومن الممكن أن يكون مصاباً بالتمائل (اختيار الكلمات)، أو بالتجاوز (الاستعداد لبناء الجملة)".⁴¹ أما عن مفهوم الوظيفة الشعرية، فيمكننا أن نقول عنها إنها "وظيفة غائية تتجلى في إدراك الكلمة من حيث هي كلمة لا من حيث هي مجرد بديل عن شيء مسمى أو تفجير عاطفة. إنها تتجلى لا في كون الكلمات ونحوها ومعناها وشكلها الخارجي والداخلي إشارات محايدة ترجع بطريقة لا مبالية إلى الواقع المعاش [المعيش] أو المتخيل، بل من حيث كونها كلمات لها وزنها الخاص بها، وتتمتع بقيمتها الذاتية الداخلية. وإذا كانت الشعرية تشديداً على الرسالة لذاتها، فإن ذلك يعني أنها توضح الجانب الظاهر للإشارات اللغوية من جهة وبين الأشياء التي تدل عليها هذه الإشارات من جهة أخرى".⁴²

ترتفع الكلمات الموظفة في العمل الأدبي في الوظيفة الشعرية عن مرتبة المقارنات بينها وبين مثيلاتها، إلى مرتبة تجعل من بنيتها وموقعها في العمل محلّ الانتباه ومركز الدراسة في الشعرية حيث يُبحث في طبيعتها ودلالاتها الظاهرة والباطنة.

ومن ثمّ، فإنّ الوظيفة الشعرية "تشير إلى قيمة الرسالة نفسها... وقد عرّفها (جاكوبسون) بأنها علاقة ذاتية، هي العلاقة بين الرسالة، وبين ذاتها، إذ تكون الرسالة غاية ذاتها...".⁴³ وهذا يؤيد ما سبق ذكره من كونها تتخذ الرسالة وسيلتها وغايتها في التحليل.

38- موسى سامح ربابعة- الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها- ص 17.

39- رينيه ويليك- مفاهيم نقدية- تر: محمد عصفور- عالم المعرفة: سلسلة كتب ثقافية شهيرة يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت- فبراير 1987م- ص 371.

40- موسى سامح ربابعة- الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها- ص 13.

41- بيير جبرو- الأسلوب والأسلوبية- تر: منذر عياشي- ص 68.

42- جورج مولينيه- الأسلوبية- ص 15، 16.

43- عدنان بن ذريل- اللغة والأسلوب: دراسة- مراجعة وتقديم: حسن حميد- مجدلاوي للنشر والتوزيع- 2006- ط2- ص 92.

تنبئ (جاكوبسون) التركيب والاختيار اللذين تقوم عليهما الوظيفة الشعرية "في تحديد الأسلوب، ... فقد استغل معطى ألسنياً قاراً يتمثل في أنّ الحدث الألسني هو تركيب عمليتين متواليتين في الزمن ومتطابقتين في الوظيفة، وهما اختيار المتكلم لأدواته التعبيرية من الرصيد المعجمي للغة ثم تركيبها تركيباً تقتضي بعضه قوانين النحو وتسمح ببعضه الآخر سبيل التصرف في الاستعمال"⁴⁴. ويذكرنا قوله: "تقتضي بعضه قوانين النحو" بنظام اللغة الذي يلتزمه ويتكئ عليه أيّ متكلم في حديثه، كما يذكرنا قوله: "وتسمح ببعضه الآخر سبيل التصرف في الاستعمال" بالمبدع الذي يكون له من القدرات ما يؤهله لكسر ما يمكن من هذا النظام كسراً جمالياً يخلق الإبداع دون أن يلحق الضرر بجوهر هذا النظام.

إننا حين نتحدث عن النظام وما يلحقه من تصرف وتغيير، نتبين دور الوظيفة الشعرية المتمثل في أنها "تحاول رصد القواعد العامة التي تحكم الأثر بدلاً من محاولة القبض على معناه، كما تسعى إلى معرفة هذه القواعد من داخل الأدب نفسه، لا من خارجه بخلاف العلوم الأخرى كعلم النفس وعلم الاجتماع، إلخ، إنها تبحث عن هذه القواعد من داخل الأدب نفسه. إذاً الشعرية مقارنة ضمنية للأدب وداخلية معاً."⁴⁵

لقد "حاول جاكوبسون إبراز معيار موضوعي يسمح بالكشف عن حضور الوظيفة الشعرية الذي يمكن التعرف إليه عن طريق العلاقة الخاصة القائمة بين العمليتين اللتين ينهض على أساسهما أيّ بناء لغوي، ألا وهما الاختيار **Sélection** والتركيب **Combinaison**. عند إرسال رسالة ما، نركب على محور تنابعي (أفقي) **Syntagmatique** وحدات مختارة من بين وحدات أخرى مشابهة لها بدرجة تقريبية ومجمعة بالافتراض على محور استبدالي (عامودي) **Paradigmatique**. وتتجسد خصوصية الوظيفة الشعرية في عرض مبدأ التكافؤ **Equivalence** لمحور الاختيار على محور التركيب."⁴⁶ ومن هنا، يظهر أنّ الوظيفة الشعرية عملة ذات وجهين هما المحوران، ولا يمكننا أن نقف عليها إلا إذا نظرنا إليهما بصورة متوازية في الدراسة وليس بصورة متعاقبة.

يحيلنا النظر إلى المحورين بصورة متوازية إلى الدينامية التي تنشأ عن ذلك في الوظيفة الشعرية، "فنحن نعرف جميعاً أنه يمكن أن نتناول النظام اللغوي إما من زاوية معجمه أو من زاوية نحوه. نحن نختار الكلمات، ونحن ننظم بعضها منها في سلسلة من العلاقات. المحور الأول استبدالي، والمحور الثاني نظمي. ويتم الاختيار بالطبع على المحور الاستبدالي بين عدد من المفردات التي تتكون من وحدات متعادلة من حيث التراكيب. إن خصوصية الوظيفة الشعرية من هذا المنظور تكمن في قلب لعبة هذين المحورين، ... إذ يستمر المحور النظمي في القيام بدوره التنظيمي والمكثف، ويستمر المحور الاستبدالي أيضاً، ولو جزئياً على الأقل، في تأمين دوره الانتقائي بطريقة إضافية."⁴⁷

44 - عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب - ص 92.

45 - Tzvetan Todorov - Poétique - Edition du Seuil - 1968 - Imprimerie BUSSIERE à Saint-Amand - D. L - 4^{ème} trim - 1973 - P.19.

« ... elle ne cherche pas à nommer le sens mais vise la connaissance des lois générales qui = président à la naissance de chaque œuvre. Mais par opposition à ces sciences que sont la psychologie, la sociologie, etc, elle cherche ces lois à l'intérieur de la littérature même. La poétique est donc une approche de la littérature à la fois « abstraite » et « interne ». »

46 - مجموعة من المؤلفين - مفهومات في بنية النص: اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، الناصية - تر: وائل بركات - دار معد للطباعة والنشر والتوزيع - 2006م - ط2 - ص 47.

47 - جورج مولينييه - الأسلوبية - ص 87.

معنى ذلك أنه "لا يمكن تحليل النص الأدبيّ إلى وحدات متتابعة دون اعتبار مجموعات الرموز التي تكوّنه، فهو رسالة تنقل دلالة سياقية لكنها في الوقت نفسه ذات قيمة بنائية مما يفرض ضرورة قيام علاقة جدلية بين محوري المجاورة والمخالفة".⁴⁸ ويُقصد هنا بمحور المجاورة التنسيق، وبمحور المخالفة الانتقاء.

تستمرّ ديناميّة المحورين على طول العمل الأدبيّ في "تحرك على مستوى العلاقات بين الوحدات، وقد يكون التحرك أفقيًا يعتمد التجاور بين الكلمات بحسب قوانين النظم... وقد يكون التحرك "عموديا" يعتمد على علاقات "الغياب"، وهي عملية طبيعية إيحائية تقوم على استبدال أية كلمة بكلمة أخرى لتشابه صوتي أو صرفي أو دلالي... فهذه العلاقات هي طاقات مخزونة في ذاكرة اللغة، وتتداخل مع الكلمة في حالة الإبداع، وفي حالة التلقي، وتختلف هذه الوحدات في طاقاتها المخزونة في ذاكرة الجماعة، وقد يلجأ المبدع أحيانا إلى هذا المخزون يستثمره في إغناء الخطاب وشحنه بدفق إيحائي عميق لتحقيق الوظيفة الشعرية".⁴⁹

تؤكد دراسات الشعرية على "أن اللغة الشعرية ليست مجرد وحدات لسانية مؤلفة تأليفا خطيا متعاقبا، بل هي نسق من الإبدالات

أو هما معا في الوقت نفسه، و لذا لم يُعرّف جاكوبسون الوظيفة الشعرية بأنها "الإسقاط **La projection** لمبدأ التماثل من محور الاختيار على محور التأليف"، بدون جدوى، ذلك أن الرجل أولى أهمية أكثر شرحا و تفصيلا لهذه الوظيفة التي عدّها ضرورة لكل عمل أدبيّ متسائلا عن المعيار اللسانيّ الذي نُدرِك به على سبيل الاختيار كنه الوظيفة الشعرية، وخاصة العنصر الإلزامي في كل عمل شعري **œuvre poétique** ويرى أنه للإجابة على هذا التساؤل ينبغي أن نتذكر كيفيتين أساسيتين من التنظيم مستعملتين في التصرف الكلامي إخمًا الانتقاء والتوافق أو التنسيق.⁵⁰ فلا يمكننا أن ندرس الوظيفة الشعرية بأي حال من الأحوال بمعزل عن هذه الثنائية (الانتقاء/ التنسيق).

تخلق الديناميّة الحاصلة للمحورين في الوظيفة الشعرية نوعا من "التطابق بين (جدول التوزيع)، الذي للرصف، و (جدول الاختيار)، الذي للنمطية الكلامية"⁵¹، وهذا التطابق "يقرّر الانسجام بين مفردات (النص الأدبي) ... باعتبارها علامات استبدالية، أي وحدات لغوية معجمية، في عملية الإبداع.

وإن أصالة (جاكوبسون) في أنه دلل كيف أن (الأسلوب)، كمتجلى للشعرية، أو أثر لها، هو (تعادل) يتركز على المزج بين الجدولين: _جدول التوزيع، و جدول الاختيار...⁵² وفي ذلك تأييد لما ذكرناه من استحالة فصل المحورين عن بعضهما حينما يرتبط الأمر بالدراسات الأسلوبية.

6. اشتغال المحورين ضمن اللغة المجازية وعلاقتها بالانزياح:

تناول (جاكوبسون) كل محور على حدى في دراسته المجاز والاستعارة بعدما جمعهما معا في الوظيفة الشعرية، وقد مكّنه من ذلك انفصال بعض المباحث البلاغية عن بعضها الآخر، وطبيعتها التي تقرّبها من أحد المحورين؛ "وقد أصبحت هذه النظرية بالنسبة

48 - صلاح فضل- علم الأسوب والنظرية البنائية- ج2- ص 534.

49 - رابع بوحوش- الأسلوبيات وتحليل الخطاب- منشورات جامعة باجي مختار- عنابة، الجزائر- 2006م- ص 39، 40.

50 - عبد الجليل مرتاض- "الظاهر والمخفي"- ص 59، 60.

51 - عدنان بن ذريل- اللغة والأسلوب- ص 141.

52 - المرجع نفسه- ص 141.

لجاكوبسون أساساً للصور البلاغية الأكثر تداولاً في اللغة الأدبية، وأعني بذلك الاستعارة والمجاز المرسل. فجعل قطبي هذه الثنائية أساساً لمعظم دراساته الأدبية (الشعرية منها والنثرية) لدرجة أنه استعمل المحور النظمي كمرادف للمجاز المرسل، والمحور الاستبدالي كمرادف للاستعارة.⁵³ وهو أمر يبيّن باعتبار المجاز محصلاً من التركيب كاملاً، في حين أنّ الاستعارة تتحقّق بالمفردة الواحدة التي تنتقي من بين مثيلاتها.

لا تتحقّق اللغة المجازية ألا بالانحراف _أو الانزياح_ في الأسلوب، وهو الوسيلة التي تعين المبدع على الخروج عن قانون اللغة، وهو يمسّ بالضرورة المحورين، حيث "يمكن تصنيف الانحرافات طبقاً لتأثيرها على مبدئي الاختيار والتركيب في الوحدات اللغوية تبعاً لـ (جاكوبسون)"، فالانحرافات التركيبية تتصل بالسلسلة السياقية الخطيّة للإشارات اللغوية عندما تخرج عن قواعد النظم والتركيب، مثل الاختلاف في ترتيب الكلمات، والانحرافات الاستبدالية تخرج على قواعد الاختيار للرموز اللغوية مثل وضع المفرد مكان الجمع أو الصفة مكان الموصوف أو اللفظ الغريب بدل المؤلف.⁵⁴

نستنتج من خلال ذلك أنّ الانزياح نوعان، "فأما النوع الأول فهو ما يكون فيه الانزياح متعلّقاً بجوهر المادّة اللغوية... وتمثّل الاستعارة عماد هذا النوع من الانزياح. ونعني بها هنا الاستعارة المفردة حصراً، تلك التي تقوم على كلمة واحدة"⁵⁵ وهذا ما سبق ذكره قبل؛ "ويرتبط الانحراف بالاختيار ارتباطاً وثيقاً، لأن الاختيار يقوم على إمكانيات متعددة تفتح المجال لحدوث الانحراف، وتُحقّقه وتحليه إذ إن الاختيار يمكن أن يبرر بالمقارنة مع حالة الحياد أو الأسلوب المحايد أو ما يعرف بالدرجة الصفر وبذلك فإن الاختيار ينفّث على الانحراف بشكل وثيق."⁵⁶

وأما النوع الثاني منه "فهو يتعلّق بتركيب هذه مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه؛ سياقاً قد يطول أو قد يقصر، وهذا ما سمي "الانزياح التركيبي".⁵⁷ فالأسلوبية لا تهتمّ بالاستبدال والتركيب في مستوَاهما القاعديّ الأولي الذي لا يخرج عن نظام اللغة، لأنّ هذا من اهتمامات الألسنية، ولكنها تدرس المستوى الثاني الذي يصطبغ فيه المحوران بـ "التمرد" على هذا النظام تمرّداً جمالياً.

إن المستويين اللذين يتناوب عليهما المحوران، يجعلان بين اللغة العادية واللغة الشعرية سدّاً، ويتجلّى هذا الأمر بوضوح في المحور التركيبي خاصة باعتبار مفرداته كلها حاضرة وماثلة أمام المتلقّي بحيث يستطيع من خلال العلاقات التي بينها أن يحدّد في أي من المستويين يكمن المحوران؛ "ومن المقرّر أنّ تركيب العبارة الأدبية عامّة والشعرية منها على نحو خاص، يختلف عن تركيبها في الكلام العاديّ أو في النثر العلمي: فعلى حين تكاد تخلو كلمات هذين الأخيرين أفراداً وتركيباً من كلّ ميزة أو قيمة جمالية فإن العبارة الأدبية أو التركيب الأدبيّ قابل لأن يحمل في كلّ علاقة من علاقاته قيمة أو قيمة جمالية."⁵⁸

53 - فاطمة الطبال - النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون - ص 37، 38.

54 - صلاح فضل - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته - دار الشروق - القاهرة - 1998م - ط1 - ص 211، 212.

55 - أحمد محمد ويس - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية - مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان - 2005م - ط1 - ص 111.

56 - موسى سامح ربابعة - الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها - ص 34، 35.

57 - أحمد محمد ويس - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية - ص 111.

58 - المرجع نفسه - ص 120.

يحقّق تعاضد المحورين جمالا على جمال في اللغة والتعبير، لما ينتجه هذا التعاضد من تكثيف في الانزياح، "وقد صاغ جاكوبسون نظريته في الأسلوب على أنه إسقاط للمحور الرأسيّ على المحور الأفقيّ. ولكن المبدع في هذا الإسقاط يُحدث انزياحا في قاعدة الاستبدال بحيث يتصرّف في هيكل الدلالة بما يخرج عن المؤلف مما يولّد الاستعارة، بيد أن هذا الانزياح ما كان ليظهر إلا ضمن العلاقات الأفقيّة، فإذا وافق أن كان في هذه العلاقات الأفقيّة انزياح آخر من كناية أو مجاز مرسل أو تشبيه مثلا فقد صار لدينا في الجملة الواحدة انزياحان من شأنهما أن ينقلا الكلام من حيّزٍ نفعيٍّ محدود ليُدخله في رحاب غير محدود من التأثير والجمال".⁵⁹

ثمّ إنّ للانحراف أهمية في الوظيفة الشعرية، حيث "يُجمع النقاد البنائيون على أنّ أهم العناصر الخاصّة بالقول الجماليّ هو أنه يكسر نظام الإمكانيات اللغوية الذي يهدف إلى نقل المعاني العادية، ويهدف هذا الكسر بالذات إلى زيادة عدد الدلالات الممكنة، ويساعدنا على فهم ذلك ما توصّلت إليه نظرية الإعلام الحديث من أيّ كسر للنظام المبتدل يفترض نوعا جديدا من التنظيم الذي يعتبر فوضى بالنسبة لما سبق، ولكنّه نظام أكفأ عندما يقاس بمؤشّرات المقال الجديدة الداخليّة".⁶⁰ و عليه، يصبح كلّ كسر وكلّ خروج عن النظام نظاما آخر في نظر النقاد، وإن كان يعدّ "فوضى بالنسبة لما سبق"، ولعلّ اعتبارهم له نظاما عائداً إلى الإيجابية التي يعود بها هذا الكسر على اللغة في الاستعمال الإبداعيّ، فضلا عن التوليد الدلاليّ الحاصل منه.

ورغم الإضافات التي جاءت بها نظرية (جاكوبسون) في الحقل الأسلوبيّ عامّة والشعريّ خاصّة، إلّا أنّ هناك من النقاد من رأى أنّها "لم تصنع شيئا إطلاقا غير توسيع نط قيود النظم، فجعلتها تمتد على مستويين تركيبين ودلاليّ، والأخذ بمبدأ "إسقاط محور المتشابهات على محور المتناسقات".⁶¹

7. خاتمة:

ما ينبغي الإشارة إليه أن علوم اللغة على اختلافها وتعددتها لا تمثل أنماطا لدراسات متناثرة أو مشتتة، تبنى إحداها على أنقاض الأخر، أو أنّها تناقض بعضها بعضا في المنطلق والتوجه والنتيجة، والحال أن مادتها واحدة، ألا وهي اللغة.

فعلم اللسانيات، والأسلوبيات، والشعرية، وتحليل الخطاب، وما تفرّع عن هذه المجالات الكبرى من توجهات بينية، إنّما هدفها في النهاية دراسة اللغة، وطبيعتها، وتركيبها، ونظامها، يخضع لمتغيرات متطورة ومستمرة في الاستعمال اليومي والإبداعيّ سواء بسواء.

ولقد مثل المحوران اللذان يعدان سنام أية لغة، المبحث الأكثر تداولاً ودراسة في هذه العلوم اللغوية. على اختلاف اصطلاحاته بين الباحثين، فأي متكلم أو مبدع إنّما يتخير من اللغة مفردات من بين نظيراتها، ليجعل بينها وبين الأخريات اللواتي يراحمها في السياق سببا وتعالقا، ليخرج الكلام في النهاية بلغته الخاصة وتركيبه المتفرد عن بقية الاستعمالات.

ثمّ إن اللعب على نوات هذين المحورين في الأدب تحديدا، يولد شعريّة خاصة، لا تتوفر في الكلام العادي، فترتفع بذلك اللغة عن نظامها المعروف الشفاف، إلى نظام أكثر كثافة وإيحائية، لتنتقل من الدلالة على واحد، إلى الإشارة إلى متعدد.

59- المرجع نفسه - ص 146.

60- صلاح فضل- علم الأسوب والنظرية البنائية - ج2- ص 582.

61- جون كوين- النظرية الشعرية: بناء لغة الشعر، اللغة العليا- ترجمة: أحمد درويش - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة، د، ط- 2000م- ج2- ص 263.

ولا يخفى ما للباحث الألسني (جاكسون) ومن نحاه نحوه على غرار (ريفاتير) من جهود حول التركيز على المحورين، وتتبع تطوراتهما شبرا بشبر وذراعا بذراع، ابتداء مع اللسانيات التي تركز على الجملة، وانتهاء بالأسلوبيات والشعريات التي تشتغل على النص كافة، وتتبين مواضع الكسر والانزياح عن النمط المعهود في النظام اللغوي، إلى نمط آخر أكثر رفعة وكثافة يميز المتكلمين عن بعضهم البعض انطلاقا من مستويات الكلام.

● قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم (رواية حفص عن عاصم)

(1) المراجع العربية:

- ✓ إبراهيم محمود خليل - النقد الأدبي الحديث: من المحاكاة إلى التفكيك - دراسة المسيرة - الأردن - د، ت.
- ✓ أحمد درويش - دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - د، ت.
- ✓ أحمد محمد ويس - الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبيّة - مجد المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان - ط1 - 2005م.
- ✓ بوطارن محمد الهادي وآخرون - المصطلحات اللسانية والبلاغية والأسلوبية والشعرية انطلاقا من التراث العربي والدراسية ومن الدراسات الحديثة - دار الكتاب الحديث - 2008م.
- ✓ حسن ناظم - البنى الأسلوبية: دراسة في "أنشودة المطر" للسياب - المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، المغرب - د-ت.
- ✓ حمير العين خيرة - جدل الحداثة في نقد الشعر العربي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ط1 - 1997م.
- ✓ رابع بوحوش - الأسلوبيات وتحليل الخطاب - منشورات جامعة باجي مختار - عنابة، الجزائر - 2006م.
- ✓ صلاح فضل - علم الأسلوب: مبادئه وإجراءاته - دار الشروق - القاهرة - ط1 - 1998م.
- ✓ صلاح فضل - علم الأسوب والنظرية البنائية - دار الكتاب المصري - القاهرة - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 2007م، ج2.
- ✓ عبد الجليل مرتاض - الظاهر المختفي: طروحات جدليّة في الإبداع والتلقي - ديوان المطبوعات الجامعيّة - بن عكنون، الجزائر - 2005م.
- ✓ عبد السلام المسدي - الأسلوبية والأسلوب: نحو بديل ألسني في نقد الأدب - الدار العربيّة للكتاب - ليبيا/ تونس - 1977م.
- ✓ عثمانى الميلود - الشعرية التوليدية (مداخل نظرية) - شركة النشر والتوزيع المدارس - الدار البيضاء - ط1 - 2000م.
- ✓ عدنان بن ذريل - اللغة والأسلوب (دراسة) - مراجعة وتقديم: حسن حميد - مجدلاوي للنشر والتوزيع - ط2 - 2006م.
- ✓ عدنان بن ذريل - النص والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (دراسة) - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 2000م.

✓ فاطمة الطبال - النظرية الألسنيّة عند رومان جاكوبسون (دراسة ونصوص) - المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع - بيروت، لبنان - ط1 - 1993م.

✓ محمد عبد الله جبر - الأسلوب والنحو: دراسة تطبيقية في علاقة الخصائص الأسلوبية ببعض الظواهر النحوية - دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع - الإسكندرية - ط1 - 1988م.

✓ منذر عياشي - مقالات في الأسلوبية (دراسة) - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - ط1 - 1990م.

✓ موسى سامح رابعة - الأسلوبية: مفاهيمها وتحليلاتها - دار الكندي للنشر والتوزيع - الأردن - ط1 - 2003م.

✓ يوسف أبو العدوس - الأسلوبية: الرؤية والتطبيق - دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة - الأردن - ط1 - 2007م.

(2) المراجع الأجنبية:

✓ Tzvetan Todorov- Poétique- Edition du Seuil- Imprimerie BUSSIERE à Saint-Amand- 1968, D. L- 1973- 4^{ème} trim..

✓ Pierre Guiraud et Pierre Kuentz- La stylistique: lecture- Editions klingksieck- France, 1970-4eme tirage.

(3) المراجع المترجمة:

✓ بيير جيرو - الأسلوب والأسلوبية - ترجمة: منذر عياشي - مركز الإنماء القومي - بيروت - د، ت.

✓ جورج مولينييه - الأسلوبية - ترجمه وقدم له: بسام بركة - المؤسسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع مجد - ط2 - 2006م.

✓ جون كوين - النظرية الشعرية: بناء لغة الشعر، اللغة العليا - ترجمة: أحمد درويش - دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة - د، ط - 2000م - ج2.

✓ رومان ياكوبسون - قضايا الشعرية - تر: محمد الولي ومبارك حنون - دار توبقال للنشر - المغرب - ط1 - 1988م.

✓ رينيه ويليك - مفاهيم نقدية - تر: محمد عصفور - عالم المعرفة: سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت - فبراير 1987م.

✓ فيلي ساندريس - نحو نظرية أسلوبية لسانية - تر: خالد محمود جمعة - دار الفكر بدمشق للتوزيع - ط1 - 2003م.

✓ مجموعة من المؤلفين: مفهومات في بنية النصّ. _ اللسانية، الشعرية، الأسلوبية، التناسية، تر: وائل بركات. ط2، دار معد للطباعة والنشر والتوزيع، 2006م.